رسائل الأحد

علي مرعس

رسائل الأحد

تأليف : علي مردس

تصميم الغلاف: بتول مختار

إلى الظل الذي يجمع عقلينا وكتاب

وقهوة ونبع حب سلسبيل .

تعيس هو إذا لم يجد يوما يحسبه

إلياس كآنيتي

عزيزتي ، ليست هنالك قواسم مشتركة كافية بيننا، من الأضداد يتوالد التوافق ، غربتنا عن ذواتنا تخلق فينا رغبة الفضول في البحث عنا ، هويتنا سر القلق الوجودي في تفاضلنا ، تماثلنا تجربة نفسية أي أن نكون أنفسنا ، هويتنا تعطى لغيرنا أي لأحبائنا بعد الغرق في عمق الذات العارفة بنا ،ليست شيء مرح يعطى ،هويتنا تاج نتملكه في نصرة الأنا و لسحق الاغتراب ذا القطب الأخر للذات العارفة ، العدم في حيز الوجود المغيب ،الاغتراب مهرب لسجناء الحسرة، نهايته مظلمة في سجن أكثر رعبا ، الاغتراب يشكل التكيف الصامت لبؤس الوعي ومفارقته المرهقة ، ندرة الممكن تستنسخ في طياتها بذور اللا ممكن ، المجتمع المغترب أشد تمزقا من الفرد الواهي في انتعاشة اغترابه ، فالمجتمع يزاول نشاطه بعاطفته الجماعية دون تأثر أي بعقله الجمعي

أما عقلانية الفرد تصبح تمرد لكسر حلقة الممارسة الجمعية المفتعلة ،الفرد رجوعه بمقياس نفسه و معايير مجتمعه المنفتح على هويته وتصبره على استقلالية مكوناته المؤثرة ، تقبل الانصياع أحيانا لأجراس الوعي أو تنساق خلف عاطفة الجمهور المؤثر ، لا أدري عزيزتي لعلها توجد قواسم تجمعنا ، منعطفات تربط طرقاتنا وتحملنا إلى جسور أمانينا ، لكن لم أستشعر ذلك بعد رغم تدقيقي في تفاصيلك، ابتسامتك العفوية ،جاذبيتك تبدو كما لو ترقص سنابل القمح في الشتاء حين يعتريها الخجل فخدودها مرسم ،عيناك تظهر بريقا خاطفا يتموج على مقلتيك الساحرتين ،وأثر السحاب من مزنها اللغوي يجول بين منطقنا وتقاسيم حروفها يمطرني جمالا ببراعة اليراع و لغوية سيبويه ، تبخترها الطاووسي أراه تواضعا حول

وصيفاتها السمراوات ،فعلا لست أدري إن كنت صاحب البلاط لسموك ؟

أحرفي جسدت بعض صفاتي ،أحرف لغة الضاد تسابق اللغات الأخرى لتحظى بشرف المكانة بين فواصل أسمها كجندي مجهول بين الصفوف يستبسل ليصنع النصر بين النياشين .طالما أرى في لغتي الأم صوت خفي يحدثني عن حضارات لم أشهدها ، أماكن لم أزورها ،مخلوقات غريبة أحس فيها بانتماء الوطن ، قرب الموقع وجغرافيته ، حرف لغتي الأم يمثل المبضع الذي يشرح لساني و يغرز خيوط الفكرة فيه .

حتى في أيامي الأخيرة كنت أحادثني بفصحى أنتقي جرسها الصوتي في زهو ، أتطلع لجميل عباراتها و أثمل أعذبها نبعا ، لم أتمكن فيها وما زلت تلميذا فيها

لكني أحسها نبض الحياة يسري بدفء في تواريخها ، اللغة الأديب مجددها و الرسول محييها ، ورسائلي لسموك ثمرة يانعة في بساتينها .

لست أدري من هي ؟ لعلها ساعتي المنسية ، فاكهتي المعلبة الجافة أو قهوتي الباردة أو لؤلؤتي الزرقاء ..هي كالسماء في صفوها ، كالأراضي الطاهرة لا تقبل التدنيس ،هي القرابين التي قدمت من قبل أنبياء العهد القديم ، تبدو كرتق البرزخ بين نضارة العشاق و عنفوان الصبا ، هي لهفة أخرى ، نشوة يقظان في حلم السكارى ، هي جنة أسمى ..

كتبي مبعثرة ،أغلفة كثيرة مندثرة عناوينها متنوعة فلسفية ،أدبية، طبية وأخرى مميزة تشابه ملامحك ،أريج أوراقها ياسميني ، كانت تبدو لي بيضاء يخلو

حرفها سوى أحداها بين تلكم الفوضى يلوح لي بالذكريات مضجعة موقعها في الماضي وتروم لتقذف بشعوذتها في بندول مستقبلي ، لتتأرجح جيئا وذهابا بتنكر فيزيائي مقيت يصطاد في عكر بالي ، الذكريات أشبه بخيوط مغزلية تنسجها بتعدد الموقف المبتكر تربط لحظتها الأولى مرورا بشخصك إلى مثير جزيئاتها ، تقطع هدف موضوعها أو تكهرب جزيئاتها لتعطب أو أحرص أحيانا بتجميد رؤاك في قوالب حديثة لكن لا تأمل فهي ذكرى لذكرى منسية .

من مناقب التعاسة دفع كتبك المفضلة إلى غريب ، ومن أبجديات السعادة وتحصيل الكياسة وهب كتاب لعزيز ، نشوة القارئ في ثلاثة مواضع اكتشاف كتاب نادر ، إهداءه كتاب قيم ، لحظة الانتهاء من قراءة كتاب تمكن من فهمه جيدا .

كتابك الذي أهديتني ما زال مرتبا منسقا جديدا ، يعبر عني في أسطره دون حتى تصفحي له ، هامسا لي بأنين وحنين ، شدو عفتك وصفاء حياؤك يثير البراءة في خلقي ، تبدو ابتسامتك على غلافه واضحة كتقنية هول غرام كنت أراها حتى الناب وتجسم عمق الغمازة ككهف وسط الغاب .

الاقتباسات المكتوبة التي وضعتها ميزته كقولك " أخبرتك سابقا أنني اشتريت هذا الكتاب ولكن لم أكمله ، قد تركت لك إزالة هم إكماله وأكمله وضمه إليك مع نبض " وكقولك في موضع أخر "عزيزي لا تحاول مجاراة كل شيء في حياتك ، تغلب وتمكن كي تجاريك الأشياء" مذ تلك الوهلة التي قرأت فيها رسالتك وأنا أعمل وفقا لمقتضى الضرورة و أتريث في مواقفي ولا أجاري الأشياء حتى لا تبتر قدمي أو يصدع رأسي ، صرت أحب لبس قميصي الأسود

والأخضر الفاتح أمي قالت لونه "حرجلي" ، لا أكترث للمسميات أكثر من شرائي مثله الكثير ، راق لي ذوقك في تجاوبه الساحر مع رهف حسي ، أيقنت أريحية مزاجي قابلة للتكيف مع مثيلاتها ، فالكائن البشري يميل لمحفزاته ، يخلق أسطورته وفقا لرغباته يعلوها ليتجاوز واقعه ، يتمرد عليه أحيانا وغالبا يفسره خوفا من طغاته ، يسقط ذاته الجاهلة على عناصر كونية أجهل ليغيب عقله عن معرفة العلم الأوسع ليس عن عمد ، فقط عن تكبر وجهل وأحيانا تكاسل ولم يكتسب الأخير إلا موروثا وتدرج متطورا في حلقات السلوك عن وعي وبغير وعي ، لحظة انكشاف الحقيق يصدم المرء بعريه و زيف برهانه ، يسقط مغشيا عليه في حضرة الوعي يخرجه نحو مسالك الصواب يتفتح عقله بنشوة الحق لغياب تخدير الباطل ، يقوى مقامه وتثبت حجته و يحس بسلامة

فؤاده جبرت كسور فطرته ،وأسست منارات هديه و بلغ الرشد في تجاهل مخاطر مراهقته الفكرية الأولى ، فصمد وحمد

عزيزتي ، وسط الفوضى هذي صفحات مذكراتي المنثورة أمامي كحبات الأرز في السهل الهندي ،نصف كوب قهوتي الدافئة فارغا ونصفه الثاني تدفق متعاطفا لحالتي ، أقلام حبري بتنوعها وقصاصات أشعاري ،جرائدي ، زجاج نافذتي الخشبية المطلة لمنزل جارتي العانس ، أختي المشاغبة حين تجبرني لتناول كعكها السيئ ، طنين نحل شجرة الليمون خاصتنا ، خوار أبقار جيراني وضوضاء سياراتهم ،الجرح في قلبي وملحنا الشرقي لا يعالجه سوى مسحوق ملحك ، مبعثر وهذي التفاصيل تعزيني على فراقك .

أشيد الملك سليمان لبلقيس بيت من زجاج ، أكان من بلورات ماس في قاع بحر أم في قلب جني ، أحب أولى رسائل هدهده ،أعز مكانتها و رفع مقامها ، هل سعى بقلبها قبل قومها ؟

ماذا عن قيس ،أشعر كتب ،نثر ترجمان مشاعره ،جن ، هام على وجهه البيداء

لا شيء من ذلك كله هنا ، تعال حبي عليهما.

أحد سياسي ممتعض منه

أتعلمي حين كنت أتهامس مع نفسي لتناسي همومي ومشاغلي التعيسة ، حين أنظر برهة لانعكاس وجهي وعيناي البراقتين في جوف فنجاني ، لحظة تصفحت أخر قرارات الساسة متغيري المزاج متلونة الرؤى ،وقتما صافحت صديقي عندما أتى غاضبا غير مرتب الشكل وهي ليست عادته المعهودة ، أتعلمين إنني اليوم

عكرت صفو صديقي بسبب التنافر الأيدلوجي الحزبي ، مقيتة معظم الأيدلوجيات ، أنا عدو الأيدلوجية ، الحرية حين تتجاوز حدها تصبح استعباد وهذا ما أردت توضيحه له ، لكنه تحرر وانكمش على رأيه ، يرى فيه الحقيقة المطلقة ، يعتقد في حزبيته هي الخلاص لأرق الشعوب و المؤسف تؤرقه أطروحات غيره، يناضل بتلفيق ، النضال هو التضحية وإعلاء العدالة في سبيل المقاومة ، لدحض الزيف و نبذ الجهل و نشر الوعي وكسر صخور العقول الجامدة ربما نحتها بأزميل خاص يتقن إمساكه المثقف و نبش مومياء الرأي المنحطة ، لكنه يتجاهل عن عمد الإصغاء لرأي مخالفيه.

عزيزتي، صراعي بين ألهو و الأنا دائم غير منقطع ، مرتحل في عينيك وأزحف أكثر من دموعها بعرض شراينها أتربع، أبصر بك غيوم مجدي و منارات

طموحي ،إرادتي القصوى منحصرة في رغبتي باعتكافي في معابد جمالك ، أنتي دفعتي الصغرى ، شرارتي لأحداث الانفجار العظيم ، صرت اقرأ كثيرا لأطفئ الجهل بداخلي ، وأروي حقول وعيي ،أحدث وأناقش كتاب ومفكرين ،هم يكلموني ويخبروني عن مشاريعهم ، أطروحاتهم الفكرية التي يبحثوا عنها عشرات السنين ، كنت أظلمهم بقراءتي لهم في يوم ويومين مقابل ما كتبوه فى سنوات ، هذا إجحاف فى سعيهم الدءوب، خصي لنشوة فضولهم الحثيث الدائم فلنعطي المؤلف حقه ، هي أمانة في أعناقنا ، خيانته تبدأ بقراءتنا السريعة لمؤلفه ، لا ذنب للكتاب إلا وجوده في يد القراء المتسرعين ، هم نازية الثقافة الجدد ، لا تحكم السيطرة على المجرة بابتلاع الكويكبات على عجل ، بل بسحق الشمس وشبيهاتها من الأنجم ببطء و حصافة .

وللقراءة طقوسها كما للأكل طرائقه ، لكن لم نسمع يوما مات أحدهم بسبب عدم أكله بالشوكة والسكين ، هي مكملات للأولويات ، كنت أريد محادثتك عن دور الشمعة كطقس مفضل عند قراءتي للروايات خاصة الفلسفية ، وحدي في غرفتي ، بصراحة هي مخزن أشاركه السقف مع انفصال أدوات كلينا ومشاركتنا لنفس المهام ، رواية الخيميائي ، تنقلت معه في اسبانيا وصحراء المغرب و أهرامات مصر، عشت أدوار الراعي والحرفي و المكتشف والمقاتل تحت ضوء شمعداني ، طقسي المزجي بحلة الحضور وجلالة الأناقة برغم بساطته ، والطقوس فن لها أزمانها و نهايتها وموته كأي مصير بشري يتخلله القدر ، لم أكترث لعدد الصفحات يوما ، فدرجات تطورك في قراءة الكم تزيد باهتمامك بطريقة الكيف ، مدى قوتك في اكتساب تفكيك مصطلحات المادة المعنية تيسر

تناولك لها ، تبدأ بدراستك للحواشي والانكباب على قراءة المقدمة والخاتمة بتمعن ، هي أبهى التفاصيل التي توصلك لقدسية جمال العمل المعني ، المترجم يا سيدتي خائن للنص ،لا تجامليه. أهتمي باختيار مترجم العمل بدراسة سيرته و رأي النقاد فيه ، لا يعكس جمالية تصميم الغلاف جودة الكتاب ، فالمظهر نموذج سيء في قياس جودة المنتج ، انغمسي في عمق المادة ، عليك بمزاولة الوراقين الفراشين هم ملائكة الرحمة في جنة الكتب . القراءة مكسب لبناء عبقرية الشعوب و سد جوع الشغف الكامن في طموح أفرادها ، لا تقوم حضارة بجهل أمة أو تعالمها و تشتيت أبناءها في بلاد الغرباء إلا بغرض كسب علم أو امتهان حرفة و تدرسيها في بلدانهم الأم ، التخاذل داء عضال يصيب الشعوب بعد ساستها وقادتها ، التخاذل يكسب القوم التواكل ، الشرفاء هاجروا أوطانهم لغرض عظيم

وتفننوا الغرض الأعظم ، سلم الحضارات يبدأ درجاته برغبتك في خط الحروف وينتهي بتسطير الأمجاد وكتابة التاريخ ، إن العالم الحق لا يكتب التاريخ فقط بل يكتبه التاريخ ، الكتب تجارب حية لعظماء في فترات مختلفة ، تخلق فيك شخصية ذات طراز رفيع ، كاريزما تجابه الواقع بكل ظروفه وعوائقه هي أشبه بالنيرة الإبراهيمية تشحذ معجزاتك الكامنة لبروزها في المجتمع المختلف تكوينه ، تشل عدوك بدهائك و ترهب خصمك بيقظتك ، طالما الكتب أنقذتني من جهلي و قرفي و تعاستي ، هي مرآة لنرجسيتي ، ضعفي ، غبائي ، ترهلي الفكري ، الكتاب صديق الساعي نحو التقدم ، المتنزه عن التوافه ومفروغ الحديث وترهاته . الكتب القيمة مصفاة لرواسب جاهلية التراث ، تهذبه وتسمو بقارئها ، ومنحط الكتب

توعيك بمحتواها بمقارنتك لخصومها فتسبح فيها متفاديا الغرق في ضحالتها .

كنت أود أن أخبرك بسفري لقريتنا ومقابلتي لعزيز، طيبته تشابه ملامحك ، قريتنا تحفها الكثبان الرملية و طبيعتها نموذجية ساحرة، قرأت فيها معظم أشعار صلاح عبد الصبور ، توسدت التراب تحت شجرة تبلدينا المخضرة ، عنونت بعض مشاريعي الأدبية فيها ، كنت أفكر في مستقبلي المهني كثيرا وتقاطيع تلك اللحظات تمر ذكراك علي، أنتي النسيم ، صفو السماء، مديح الأولياء ، حنو الجدات و مقيل التائهين الصابئين عن كل شارد ،

برزت فروسيتي حين امتطيت الحمار، ولعمري هي الحقيقة فالإبل خرجت للوادي، وهنا الأحصنة شبه

معدومة ، هي ثقافة المنطقة والشعوب تصنع ثقافاتها
،يبدو جليا تفسيري لكرهي الخيول أظنه تكوين وراثي!
الفارس لا يختار خيله ، بل المطية تختار فارسها .
حين تمعنت الطبيعة رأيت ظلالك فيها ، صداها كان
صوتك، أثار نعليك الخيالين ينطق بها الرمل المتلألئ
، البدر أقراطك بدا ، لم يخلق الله الهدوء فينا إلا
ليذكرنا بالجزء المنسي من الطبيعة الخلابة ، فتأملي!

كنت أذهب مع الأصدقاء صباحا لجلب الماء من
"الدون كي" أشبه بالنافورة ، ماءه ليس عذبا ولا مالحا
، لكنه كافي لارتوائنا و لسد فاقتنا من عطش الصحراء
المهلك ،كل مناقب الطبيعة هنا تشبهك و مما لا يخطر
على ذي بال يماثل الجزء غير المحسوس من

شخصيتك ، سأحكيك وقتا يلحن كلامي شعرا مسدولا على شعرك وتعزف موسيقاي على غمازاتيك.

ساعة احد في المتشفى

سيدتي ، تمنيت لو كنت حاضرة عشية صفعني القدر وارتميت صريعا على فراشي وحيدا بائسا مخدرا نازفا ألتوي ألما ما بين الإنعاش وسماعات الأطباء

أرى طيفك يبسم لي خيل لي لحظتها إني مفارق وكانت تلك مراسم الاستقبال الأخيرة التي أحظي بها ، كان عزاءا ونورا ودواء.

الألم كان يقسو علي بشدة ليس لها مقياس فعلي

أو حتى نسبي ، الم على ناصية خلايا جسدي يقاتل كل المسكنات التي تريد تهدئته ، أشبه بألم ايفان لتش بطل رواية توليتسوي ، الألم ليس في فسيولوجي الخلايا المكتسحة بل في تبعاته من تغير نفسي ، ضمور الروح ، تقهقر النشاط ،غياب الخلان والشعور بغبطة العزلة ، الفراغ الوجودي التام ما عدا الألم طبعا وبعض من حضورك البديع .

الغزو الأولي لآلامي كان تمشيطا لترسبات ، تطهير لآثام عهود بعيدة سابقة ،الموجة الثانية كانت ليلا في الساعة الثانية صباحا كنت أسكنه بذكراك ، يهدأ حينا ويعاود هجومه تارة أخرى، كنت أتأوه بحرقة مناديا أسم أمي ومتلفظا اسمك في الثانية التي تليها ،اخبرني طبيبي بذلك وقال :تورم لساني نتيجة صكه بين أسناني لحظة حرفك ، أغمي علي مغشيا مرات كثيرة لكني

شهدت مرة صورا في قلب فقداني لوعيي كنت تبدين جميلة جدا لكنها تتلاشى وتختفي ، الألم يا عزيزتي مصدر إيمان ، وانتصارك أمامه عزز يقيني تجاه ملكة الحب ،أترجى نهاياتي العصبية أن تفتح مستقبلات خاصة بك عسى أتعافى .

تجاوزت أحرج مراحلي المرضية، ذكراك تبعث في بعض التقرح العاطفي لأنك بعيدة ، دمعي جف واشعر بحرارة تنبعث من عيني كبخار خرج توا من فوهة ماكينة قطار عطبرواي يتولى قيادته عرق الكادحين .

الصمت مهذار ، يطبق عن الكلام للحظات ، رمشي يسترق الحركة عابثا بجفن عينه ، قشعريرة متواكبة مع شل لحظي لأناملي ، أريد سماع بعض قولك ، حدثيني عن الحياة ، التفاؤل ، الأمل ، الصحوة ، فأنا أفتقد معنى القليل من ذلك والشعور بالكثير منه .فطنة المرء في تعريته عن الوهم ، ذكاءه حصنه و سر

عودته للحياة وتمسكه القوي يضمن استمرارية الكسب الجيد ، الشخص الجلد يعيش بصعوبة في عالم قابل للمرونة ، الدهاء لحافه الصمت ، حدثيني عنك ، أرمشي للحياة وقت الشدة ترأف بك ولا تبالغي حتى لا تصاب عينك بالرمد ، الحياة قاسية .

حرارة جسدي زادت الليلة ،لا استطيع التفكير بك !

أحد مأساوي آخر

لم أذق النوم لليالي، بالي مضطرب، أرق، اختناق رئوي كأنني في معتقل يستجوبوني قسرا، أضلعي مشدودة بعضها الآخر ظننتها تتآمر على قلبي الهزيل .

وحيد ، مضجعي يواسيني ، مرقدي يطبطب على عظم وجهي الذي اكتسي جلدا وشحوبا كحد سيف موراماسا الملعون نسته نهضة اليابان في كهوفها السالفة ، ناقوس ساعتي الحائطية يشير تضارب زمني ما بين

الواحدة والثانية صباحا ، لعل الخلل ليس بساعتي ، الأزمنة تداخلت في حيزي الزمني ،و تجعد الأمكنة هنا وذكرياتك، رديني لأرشيفك أرجوك

صرير هلوستي ، مزامير أهازيجي ، توقيت كوابيسي ، تقلبات أحزاني ، مآلات آمالي ، غمر أفراحي ، سر تقاعسي عن نشوة الحياة ، أوركسترا نشيدي ، بهلوان طربي ، يا سلواي ، كلها أنتي ..

كسرة أخرى أصابتني ، أيستوجب عليك هزيمتي ، لنصرك انسحبت مهزوما فالانتصار هو ما نحققه بمسعى ورغبة منا لا ما يجلبه لنا الخصم عن طيب خاطر ، لكن فات الأوان .

عزيزتي ،رسائلي لن تصلك لا خيار أمامي سوى تمزيقها ، لست أدري لكن جدي أخبرني ذات يوم :

ما يؤذيك أتركه جانبي

فحضنت رسائلي و تركت جدي .

سمعتك تغنين سكن الليل ، صوت فوق فيروزي ، ملامحك بادية كأقحوان بقوة لونه وبرودته يجمد جمال ما يحيطه من ورد ، لكنه حلم ، ليس كأي حلم .

ما لفيروز صوت يماثل تغريدك ، ولا هدوء لسكون لليل ، أنتي النهار البازغ وشعاع شموس الحرية وخجل الحرائر ، أنتي أشيائي التي تداعت في العصور الوسطى عبق الساحرات وشبق العذارى و عشق المراهقات ، أنتي روحي القابعة في أناشيد الثائرات ، نجمي الساطع فوق السحاب ، أنتي سيفي البتار المغروز في شرايين السبات، أنتي فردوس ، لكن الجنان تخلو من العذاب !

عزيزتي ، المثقف رسول قومه ، حامل مشعلهم في عتمة الاستبداد و الدناءة ، لا يشترط فيه قارئ المكتبات و مكتنز الكتب النادرة والمتنوعة ، هي وسائل لبلوغه غاية الفضيلة و نشر الخير ورفع الاستعباد ، يحيرني من يعتقد بأن الثقافة لا ينبغي لها أن تمتهن الخير في هدفها ، هذا منوط بمراد المثقف وسعيه في اختيار تبعاته لا الثقافة كمفهوم بذاته ، وهنا توضح ماهية المثقف وتصنيفاته ـ محمد مثقف ،عيسى مثقف ، بوذا مثقف ، لوثر مثقف ، اينشتاين ، العقاد ،ماركس ، هيغل ،في الأخير تختلف درجة تأثير كل منه في سعيه نحو إخراج قومه للنور و إسهاماته للبشرية جمعاء . طالما ضحى المثقف بأساسياته الحيوية ، تنازل عن الكثير من أجل بث الحقيقة ، وكرس قواه في صراع الظالمين ليس من أجل صرع الشر في نفسه بل لرفع مقصلته عن أعناق الضعفاء .

تناقض !

هزلي، لعوب ، غضوب ،غبي ، متذاكي ، ذكي، محب مجنون، مقلق، مثير للشفقة ،أحمق ، متهور، متجاوز ، عصبي، مهندم ، متشرد، ملك، أسكن دواخلك ،أنثر لحبك ورود، أزرع لغيرتك حدائق ، توسلي ملاك العاطفة ،خيبتي شيطانية الفكرة ، رجائي إنساني الموقف ..برأيك، هل أنا متناقض ؟

أحد ما بعد فض الاعتصام

كيف أكاتبك و محبرتي تواسي بلادي الحزينة ، هي الأخرى ملآنة بالدماء وقلمي يومياته حداد ؟

عزيزتي بلادي ليست تتألم فقط ،بل الحزن يتوسد عيون شعبها ، يا موطني الآخر

تعازينا الحارة ، أنا وقلمي وأوراقي ..

نبوءات الأحد

من بين الأماني الرائعة التي تتوجس راكعة في مخيلتي وهامسة في أذين قلبي سواء تلك الأمنية التي تنوي إسقاط الطواغيت لنرى فجر السلام يباركنا ، وتلك الأمنية الأخرى خرقاء أحلمها في صغري ، ليست كنظيراتها الأخريات، وقعها فريد ، غريبة في تخيلها يستصعب تحقيقها ، دعك عنها ..

أتذكرين ذلك الضباب، اكتساح الطرقات بالعابرين المسرعين، أشجار مدينتك بخضرتها توارت خلف الغمام ، التاكا ينظر بخجل ،كنت أخرق، ليت حطمت طوق الطبيعة وقبلتك ، يا لحسرتي .

أكتسي نسيم الصباح جرأته من أفق الفجر الحالم ،
أتذكر يوما ، أحد أم خميس لا أميز ، أظنه خريف لا
بل شتاء ، في وجودك لا أحس بالموجودات سوى
النظر لجمال وجودك و دراسة الوقت الكافي للنظر
في سبب وجودك.

أودعك سرا فحفظيه ، حين طلبت شايا بنعناع لنفسي و
رأيتك تأخذين قهوة بزنجبيل خفيف وقتما ضايقك
السوار في معصمك الأيمن وأزعجك طنين النحل
الهائم حول مجال نظرك ، حرمت على نفسي الشاي
للأبد وقدست القهوة والمقاهي و كل أصناف الزنجبيل
.

أنتي بطل روايتي المنزه عن العصيان ، وعمودها الفقري الذي لا يموت .

أنتي قاعدة وجودية محكمة بالعود الأبدي .

دواء القلب يكون بمعرفة كنهه

مجاراة العاشق لقلبه تقتله

الوئام توأم التكافل

غصة القلب تذبح ساكنيه

القلوب أوطان .

أنتي لي وطن ،و الأوطان في دم كل حر وشهيد ، بعد شهادتي استشهدت مرتان ،الأولى من أجلك والثانية من أجلنا .

نقاء

كما تخيلتك قبل ميلاد اللقاء ، يبدو الصفو فيك مرتع المتخبطين والزهاد وأمنيات القلوب التي تكنزها صوامع الطيبة ، الرغبات تتلاشى ، ا لنزوات تندثر ، مرآة القيم تعكس للأخيار فضيلتك.

غيدا ،هيفاء كأن قوامك يتشرب من تربة النيل ،دسمة الخلق والخليقة توجتها آلهة أفريقيا العتيقة ، زرقاء تحت نعليك طرقات البلور ميال للبنفسج ، بيضاء النية ، متوردة الأثر.

على رصيف ذكرياتنا نحيي التسكع وأعمق قصائد لياليا ،ننشد المجد الذي خطته القبلات ، نتدارس جغرافيا جزيرتنا الطوباوية المطلة على مدينتك "الوريفة" ،سأتغنى بأشعار هوميروس و درويش التي ما زالت تلهب مستمعيها وتشد مشاعرهم للقاء البعد الإنساني الرفيع ومصافحة المجتمع السوي ، مغنية أشعارهما صوت كروان يطرب روح المعنى ونابغة اللفظ ، و سأعزفك على سيمفونيات بولير و وتشايكوفسكي و موت سارت وجوزيف هايدن . كما قال ترانسترومر عن مقطوعة اليغرو لهايدن، الموسيقى تقول : الحرية موجودة .مفاتيح البيانو هادئة دافئة،المفاتيح موافقة ،مطارق ناعمة تنقر، النغم أخضر ،حيوي ،الموسيقى تقول : الحرية موجودة وهنالك من يرفض إعطاء ضريبة للقيصر ، نرفع راية هايدن بهدوء ونقول :

لن نستسلم ، لكنا نريد السلام .

الموسيقى بيت زجاجي على منحدر تتطاير فيه الحجارة ، تتدحرج فوقه الحجارة ، تتدحرج عبر البيت الموسيقي كله ، لكن كل لوح يبقى ثابتا وكاملا .

عزيزتي ، الموسيقى عروس في ليلها الأول ، مختلطة الأهازيج ، تبكيك و تحزنك حينا ،تفرحك و تسعدك تارة ، تراقصك وترميك في أحضانها وتلهيك عن الألم وتؤلمك ، هي لحن الخلود الذي يجمعنا بموسيقى الطبيعة وتغريد طيرها تجعلنا نلامس سنابلنا التي زرعناها بالحب وتلك التي بغرامنا نمت ، وما هبت نسمة عليها إلا أشعرتني برقصة حضورك ، نتلاقى دوما في كوكبنا الأزرق على مدارات المقاطع الهادئة ، صخب موسيقانا الشهب وكل النيازك.

تقنين معرفي لأحد رومانتيكي

عزيزتي، أدركت أن صراع مجتمعاتنا قائم على أسس كثيرة أرسخها ثباتا في وحل الأحقاد هو الجهل ، إن عدم وعي الإنسان بذاته وقيمته هو ما يدفعه لقتل أخيه واضطهاده، أولى درجات السلم هي تناسقنا وتقبلنا للأخر ثقافيا وأثنيا، الجهل مرساة لعصور الظلام التي ما فتئت تكشر عن أنيابها في مجتمعنا الغارق في تخلفه ، أتعلمين أمرا أن الحب أحد الأسلحة التي ما زال الحكماء يحاربون بها جيوش الجهل والرجعية ، إفشاء السلام كان أولى شعاراتها ، الحب نموذج تبشيري لأفكار سامية ، تكافؤ التكوين البشري نفسه خضع له ، تساوى عنده ، عدل الحب بينهما دون

هوادة ، لا تعارض يفرق شمل كائنين أحبا بعضها شريطة صدق حبهما إلا طرف ثالث حسدهما وما حقده لهما إلا لفقره البائس وتكوره الميئوس لعلاقة الوجود الفضلى التي شملتهما ، أثيرت قريحته بالكره و البغض و صغرت نفسه لدرجة عمى التبصر وعتم البصيرة ، وما كانت هذه إلا لجهل برابطة الحب المتينة أو لخلق مصلحها تخصه فيها أو لعصبية ، هنا الجهل يكسب مظهريا لكن الحب لم يقهر جوهره ، تعليلا لذلك باحترام قرار ما يصلح لعبقرية الحق و جادة الصواب مهما تضاربت مع الحب نفسه يقر له بأنها من جراء جوهره ، فالحب يصلح ما يدمره الجهل.

عزيزتي، رقي المجتمعات يبدأ بالاعتراف بهوياتهم وتقبلها ، تجانسها الكامن حول شروع كل مكون فيها برفع القدسية عن نفسه ، ومساهمته الفعالة في تقديم

رصيده المجتمعي ،الثقافي السليم ، ومشاركته لبث جمال كينونته لا إخفاؤه وطمسه وتشويهه بالانتقام والثأر والوقاحة المفتعلة خصيصا للنيل بمن يخالفه ، السعادة في تنوعنا الوظيفي وإلا لثارت الأذن بسبب رؤية العين .

الإنسان بطبعه المجحف وغريزته المتغيرة بافتعال الحدث اللحظي بغرض إشباعها تارة و ترويضها أحيانا ميال للزيغ ،الهروب، الانتقام ،الرغبة للمغامرة والسعي نحو الأخطار لا ليختبر شجاعة فيه أو إثارة لهرمون متجمع في بركة عقله بل ليشحذ هذي الرغبة ويجعلها أكثر تكيفا وموائمة لتفادي أخطار قادمة ، الحب ليس ضمن تلك الرغبات ، عظمته في تفوقه بأنه غير قابل للاختبار .

الحب يا عزيزتي حدوثه فريد ، كميلاد الأنجم و المجرات ، يشرع في التمدد قبيل انفجار ذرتاه .

الشوق ذاك التسلسل الانشطاري ، كموج البحر يخلق ظرفه بين حتمية القاع ومقاومة القمة لسطح البحر, والأسطح الملساء كيفما تشكلت يجتمع فيها الحثالة ويرقات الذباب .

اعتكفت حبك في غور الأعماق.

أحد روتيني

شرعت في قراءة كتاب "نقد العقل العربي" لأنه دارت حول السجلات الفكرية كيل بالتطبيل والتنكيل ، سبقته بقراءة مقالة تتحدث عن طرابيشي ناقده بكتابته "نقد

نقد العقل العربي" قائلا أن الجابري في كتابه وضح مفاهيم جديدة وإن من يقرأه لن يخرج كأول دخوله ، ورغم ذلك أنتقده وتراجع رأيه المتين و أنا عكس طرابيشي ، ما زلت كأول مرة أحب وأشقى .

تناولت قدحي لاستكمال القهوة خارج غرفتي لعلي أجد شارة تؤنسني بك ، أسراب الطيور شكلت فوقي بور تريه سريالي , ربما حالتي الذهنية تجسد معالمها كيفما أرادت ،لا الواقع الصوري الموضوعي يعكس ذلك

لا أحب قراءة الصحف اليومية لأنها تصيبني بالشره لالتهام الأكاذيب .وزيف الحقائق وهذا يصيبني بالغثيان ، و الإفلات من مقبض الوعي لأقع فريسة أكذوبة بعض الصحفيين ، هم يكسبون بنا لأجل مصالحهم ، نتصدر مجلاتهم المغشوشة ،صحفهم البالية وندفع يوميا لأجل استمرارهم في طرح الأكذوبة ، وانسداد منافذ الرؤى السليمة و بذر سالب

القضايا الحساسة ، وملاحقة المجرم وفضحه ،
صحافتنا تنشر بيانها لفضح المتستر برداء الحقيقة
وتكسي المجرم ثيابا حريريا ، تعاقب الشعب و ترفع
السياسي مقاما فوق مقامه ، تتناقل توافه القول و
منقول الكلام لتصنع منا ببغاوات ، وتخفي ندرة الحدث
الذي يحتاجه المواطن وتدعي إنها تبحث عن الحقائق .

أعلامنا له أجندته وصناع قراره ، من يتحكم بخيوطه
كالدمية هو من يتصدر الأكثر دعما للإنسانية ومبهج
لسعادة الضعفاء ، من أراد الحقيقة حرى له تحري
الدليل لكن تقصيه يبدأ بتكذيب أعلامنا .

قرأت مسرحية ليلى والمجنون لصلاح عبد الصبور
وقتما أبدأ في قراءته أحسك في شعره ومسرحيته
،أتذكر أهديتك مقطع شعري له ، كنت أتحرق شوقا

لينال إعجابك، يقوي تقاطع أذواقنا ، يميت المتطفل داخلنا ، وقتما نرغب في الصمت ننزوي في أحاديث شاعرية تنقلنا لجزر تتفنن ببراعمها النضرة و خدرتها الزاهية ، ترفع سقف حواراتنا أقل سخطا عاطفيا ، ندمت في تأخر معرفتنا ولقاءنا العجيب ’ أتذكرين لعبة من يعرف الأول غريمه ، صرت أضحوكة لعبقريتك ، كنت أرى النساء فيك وأراك في وجه النسوة ، اصطدمت كذا مرة بأنثى حدثتني إني هرطوقي ، مهرجان من الهرطقة تلك الأيام ، لم أستسلم لكني طلبت نجدة الحياة ، في قيعانها تحمل سر البقاء أقلاها حيوية ، باحثا لعلي أتوب عن هرطقتي واكفر عن خطاياي في العثور عليك ،خلف الأقنعة تتجلى الحقائق ،وما كل أحمر دم ،سيلان الدموع لا يعني البكاء فنزعت عنك بعض مثالية الصفات فظهرت المرأة التي أنشدها ، نعامل على ما تبدو عليه أحكامنا و لنضع

المعايير الاختزالية جانبا ونبحث عن أمل الحقيقة ، خلف كل قضبان الزيف دائما تتجلى الحقيقة ، هي النداء الصريح للمحقق والمكتشف و الراهب و العالم و حتى كشف الطبيب ، تعريتها تصيب المغالين بفقدان الرغبة في العيش لأنهم جعلوا الخداع عادة بل فن حياة . وبعدها أكملت قراءة نقد الجابري مجلده الأول وتراثنا الإسلامي الجبار ، كل هذه الفرق توارت خلف المنقول والمعقول وبعضها ينشد العقل في ذاته والأخر يقدس المنقول كما لو أنه ليس بخبر صدر عن عاقل ، كانت نقلة معرفية بالنسبة لي في ذلك الجانب ، وما زلت أتعلم.

سهرت في مسرحية ليلى وكنت أتجسم دور المجنون ، أمي سمعت نواحي وظنته تأثير السهر على نفسيتي ، فقطعت عني النور ، فكان ضوءك من خيالي ينير عتمتي .بلا مبالغة السهر يهشم مخي ، يخلق تأثيرا

مسموما في نفسي ، أحس كما لو أن الحياة تبتلعني ،أستنجد النوم يليه تثاؤب بلا غمضة جفن ، أدير ساقية ردود الفعل العصبي بمزيد من الكافيين وأحيانا السجائر ، لا أحبذ رائحة التبغ فهي تصنع غابات ساحرات في مخيلتي ،تستوطن نكهة فمي بنتانة أوربية مصطنعة و تندفع في لعابي و مخاطي حتى جوف الرئتين أحسه تبغ ، لا أحس بتدميرها لكنها تعاشرني عنوة في متنفسي ، ترسم حدودها وتغزو ، أخافها تصل لجهازي التناسلي و تبدأ في فعلتها المعتادة ، وقتها أخاف يخرج دخان من منطقة أنف تناسلية تحرجني ، لكني رغم ذلك أشربها لأجلد ذاتي التي تدعي المثالية , ورغبتها في تجاوز نطاقها الإنساني كأن الكون خلق لها وحدها ، أشعرها بمدى تفانيها مقابل الأخف منها وزنا ، أحقر منها رائحة و أنتن تكوينا ، وأصنع منافسا للكافيين حتى يقوي مفعوله أو

يعتزل عمله كمنبه إنزيمي تأثر بلغطي وعمل كخامل فالقهوة اليوم تكسلني و تخدر جفني .

بدأت في تعلم رسم الماندالا فكانت رائعة حسب ذوق أختي التي تصغرني ، لكني رأيت في أداءها جانب أنثوي لم يعجبني ،الدوائر غالبا تحبسني في متاهاتها حيث لا مخرج فيها يوقظ عبقريتي ، غالبا أحبذ المستطيل لأنه يوصلني إليك .

اليوم لسعتني حشرة هيكلها غريب ، لم أخف من ذلك لظني إن سمها ترياق للعقرب الذي يجالسني غرفتي ، الوحدة . لطالما تحاشيت وحدتي ،لم أفارقها لأنها تقربني للأكثر سموا ،العزلة .

العزلة ليست كالوحدة ،الوحدة أرملة قتلها الزمن وأستعمر رحمها الممزق . بينما العزلة عذراء مثمرة ، طالما كانت أسئلتنا الوجودية العظمى في عزلتنا ،

كيف خلقت الأكوان ؟ الأسئلة الفلسفية الكبرى : التدبر والتأمل في مخلوقات الله ؟ صيرورة الوجود ، مفهوم العدم ؟ تكريم الإنسان من حيث تكوينه البيولوجي و قدراته العقلية في سبيل تطويرها الدائم من العصور الحجرية الطباشيرية وحتى عصر النهضة والنووي

ومن ضمن تلك الأسئلة ، تضاريس جغرافيتك ، تصميمية وعظمة جمالك ؟ كلها أسئلة أرقتني ومهما كانت مدى قدرة قناعة الإجابات أظل أتساءل مرة أخرى وأعيد سيناريو التحفة الخالدة بهدوء .

طالما استوقفني هذا التساؤل كثيرا ، حتى ظننت إنه يورثني , فورثته .

عزيزتي ، إن صديقتي قالت لي: قراءتي للكتب الفلسفية قتلت الطفل البريء بداخلي ، تقصد منطقي سطا على تلابيب عاطفتي ، معك ينهار المنطق و تتهاوى العاطفة .

أتذكر بدراستي لمادة التشريح حزنت على الرسومات المشرحة في كتابي ، ما هذا الحمق ؟ أين من المنطق من مشاعري هذي ؟ لا أدري .

أصبحت دون كيشوتيا مؤخرا، محاربتي المستبسلة لخواء الوسائل التي توصل إليك كقتاله طواحين الهواء ، كلانا يريد إثبات جدارته لكن إصراري يثير جنديي للإقدام، والتفاني ، التضحية في سبيل البحث عنك.

من الطرائف إني يونسيا والحزن حوتا لم يوعد بقذف في العراء ومازلت سقيم.

أنا قطار على محطات الأسى وكل الطريق آهات .

ندوة شعرية ليلة أحد

اهتمامك المثير بالشعر حفز قافيتي ، حضرت كل الجلسات الشعرية ، استمعت لكل الأحرف الملقاة ،

نظرت للجمع الغفير بتفحص في كل ندوة ، محاورة ،مناظرة ، ركن نقاش ، منافسة ، تنظير ، تدشين كأنك سكنت الجميع ولم يسكنك أحد .

أتذكر تلك الندوة في يوم أحد

يجلس ظللك أمام أحد

كصخر جليد منصب

ليس له حد

عذرا يا سيد كتفك , قلت.

كان الكل منتبه في الشعر

وأنا ك ماشطة فرعون منتبه في الشعر

رمى الشاعر فؤادي بالكفر

وتولى صارخ :

أنا شاعركم الأعلى .

قلمي موسى صار يندد

تبا تبا يا ملعون

وأنا موساك صرت غريقا

في بحور جمال عينيك .

أتذكر تلك الندوة يوم أحد , وقتلت الحائط والظل ،

وشاحك أبيض موسوم بورود زرقاء ، فستان حرير

كالشمس وضاء يعكس حسن الهندام ، تحديقك للشاعر

أكسبه نضارة بدر ، فالنور شعاعك يا شمسي ،

وكواكب تلك الندوة أحجار ،أتفرس قسماتك ،

تضحكين أضحك كالأبله ،تنفعلين أصرخ و أكسر

جدران الصمت ، عندما تبتسمي لشاعر ديوان الندوة

أغار..

الغيرة شعور استلابي يصيبنا بفقدان الحس الجمالي في خنقه كشعور مرير يخالطه الرغبة بتحجر العلاقة و وقف الزمن ريثما نقتل هذا الحس ، الغيرة عموما بذرة للحسد ، تلد الضغائن في نهاية تكونها وتثير قرائح الانتقام ، الغيرة تملكيه أحيانا تفرض قوتها على الطرف الغيور وتنزع عنه بقايا الثقة المعدومة ، وجود الثقة بين الطرفين يضع حدا لعوامل الغيرة التي تشل جذور العلاقة ، غالبا الغيرة تقوي العلاقة بتوضيح مدى قوة تمسك الغيور بحبيبه ، يخلق تأثير المهتم ب في نفسه ويشجعه بذلك على تجاوز محنته في بحثه عن الاهتمام في العلاقة ، العلاقة الرحيمة لا تحاج لبرهنة الاهتمام فيها على أساس فعالية الغيرة ، كثيرا ما تخرج بنقاط سلبية تأزمها في معقل قوتها .

رأيت نحلة , أظن خيل لي , تجوب فوقك وكنت أسمع أزيزها الطنان , مداعباتها , لقد ميسمتك برحيق أريجه

لطيف ظننتك ملكتها المبجلة . توجهت نحوي

،أخبرتني بأنك لي وحدي، همست قائلة لي :

الأميرات كالفرص المميزة ، يظهرن مرة واحدة ، أغتنمها .. هممت بلفت انتباهك ، لست وحدك ، انعقد لساني و عجز حرفي رغم عن أردت مناداتك ، سيدتي ، عزيزتي ، كسرت مجاديف جرأتي فتمتمت قائلا :

يا نحلتي ..

سيدتي، دققي تحت ضباب وجهي وانفضي غبار الخجل عنه ، أنزعي عني أقنعة الوعي ، جرديني التفاصيل ، أمسحي مساحيق الدهشة الأولى ، اجذبيني لفضائياتك الأخاذة ،سطري, عنوني أحرف اللحظات

ولقاءات الصبا وما قبل ميلاد كينونة الحب الأولى ،بعثري صمتي ،اشهقي كل ذرة تنسمتها كائنات الود تلك التي قادت بواكير المحبين ، ارسميني كسراب لعلي أصير حقيقة .

لا أؤمن إلا بحقيقتين :

الحب و حقيقة الموت .

كانت لنا عصفورة ،أسيرة حزينة ، قصصت ريشها لينمو ، تألمت ،صرخت هاتفة : بالله رحمة .

السعادة شعور مريح يجعلنا نعي قدرة الحزن الساحقة كهواء متنسم بعد هجير قاسي ,أسعد نفسك , ودع الأحزان تأخذ نصيبها أيضا وقتها ستتذوق معنى أن تضحك, تبتسم , تغني ، وترقص مع إيقاعات الحياة .

السعادة لا تنشد في غايتها ، لذة السعادة تكمن في عراكها مع الألم ، إعطاء السعادة معنى .

عزيزتي، أعزفيني نايا وكمنجة ،املئي كأسي أكسيرا ،اتركي نصفه الأخر لمآسي أطفال الطريق ،اتركيني هائما صارخا كالجن في الفلوات شبحا كشهيد مات جراء الحريق .

رتابة حياتي ساعدتني في البقاء والمقاومة لأقسى تكهنات الحياة ، استعدتها بالصمت ومرة بالصراخ في وجه التعاسة ، فقط كنت أجاري التيار ، تسحبني تدفقاته نحو شلالات البؤس لمجرى تعاسة أكبر ، لبحور ألم عظمى ، والصراخ كان يدفعني بعيدا عن

هذه التيارات لكني كنت اصطدم بجنادل الغبطة و الحزن العميق .

اليوم اشتريت كتب جديدة , أعجبني تغليفها وطبعتها الراقية رغم سعرها الزهيد نسبيا ، من اللطيف أن تثقف نفسك في مجالك الأكاديمي بالإحصائيات والتطورات المستحدثة ، صديقي الباش مهندس تكبد عناء البحث عن مختارات الكتب التي أريدها ، كان يعمل في معرض الكتاب وقتها , وددت لو زرت المعرض بنفسي .

لا يهم مدى تمسكنا بالكتب ما لم نقرأها بتفحص .

يبدأ القارئ حيث ينتهي بإمساك الكتاب .

صناعة الوعي تحتاج ثقافة الشعوب

ربما يمكننا حصر عمر الإنسان في كتاب

حياة الحيوانات حافلة بالتجارب من كثير من بنو البشر

السودان دولة نصفها جاهل و النصف الأخر يستخدم هذا الجهل في أغراضه السياسية و السلطوية

و هذا جهل أعظم .

أحد صوفي

من مضغة تغذى ، للروح مسكن ولذة ،رؤى ،مدارات أفلاك سعدي كواكبها أحرفك ، مجرات تضيء بقربك ،وثقوب سوداء اضمحلت وتجملت .سطح الشمس دافئ مقارنة بلهيب أشواقي ، تعاسة الحرية تبدأ بالإفلات من جاذبية الإرادة ، و نزاهة الصوفي في قيام ليله ، الدرويش لذته في ساعة نشوة دق الطبل يخلق عالمه ، يسكر بلذة ذكر الحبيب ، يخرج تائها عن منطقه يبحث عن لحن يوقظه لحقيقة كون أخر .

نظمت قطع غزل فنشرتها على عجل ، بعض حلوى لحلوى وما أحلاها من عسل ، عيناك بخت الذي نظر ،غض طرف وأستغفر ثم نظر وابتهل .زهدت فيك ، صار جسدي طيرا على أشجار فردوسك حين بعثت بعثتي الصغرى . الزهد عفة لسان و نقاء عمل ، يبدأ

السوداني في تطوير نفسه عشية يزهد عن اللغو في كل علم ، اللغو أثم عضلة اللسان وسرطانها .

الروح أيقونة لنعمة الله العظمى وقدرته الخفية التي أراد إثبات علمه الواسع وكأن البشر بعبقريتهم و تطورهم التكنولوجي وقفوا حد اللاشيء من كسر الشيء فيها ، تجاوز الحسي يبدأ بالحسي أي الموضوعي في حدود الوعي .الروح تجلي الضوء المقذوف في عمق صلصال يخالفها المنبت في خلقهما ، الروح سر غامض .

عزيزتي ، أنا أحكيك تفاصيلي التي تؤرقني ، أعلم مدى تفهمك لذلك ، مثقف مثلك ضليع بعلم النفس والفلسفة وتنمية الذات ينظر بعدة أعين لواقعه المترامي ، تسكنه شخصيات متنوعة، موسوعيتك

العلمية مشروع حيوي اجتماعي ينثر بذر التراحم في بقاع علاقتنا و يثمر قلبينا ، أرى فيك نضرة الخطيب المفوه ، رجاحة حكيم العشيرة ، رقي إنسان القرن العشرين ، بديهة التنويري ،عبقرية النهضوي ، حرى بمثلي مراسلتك وأنتظر الجواب.

أنتظر اللقاء ...

مقبرة الكهل

مات جاري الكهل وكانت أخر أمنياته أن يزور الكعبة ، حدثني أبنه إن حياته مؤخرا امتازت بالهدوء واسترجاع ذكريات شبابه كأنما يعلم هي تلك لحظات قبل الأخروي ،صراع الوجود والعدم ، منافذ لعوالم كبرى لا يدري عنها شيئا ، ملازمة للازمني ،أتعلمي نسبية الزمن الأخروي بمحدد الزمن الأكبر أي إن زمننا الدنيوي مجرد برطمان في غرفة كبيرة ، وهذه

الأخيرة هي زمننا الأكبر ، هي مرجع كل الأزمنة المختلفة التي تشاركها العوالم ، الساعات التي أنتظرك فيها عند شط النيل ،الدقائق المنقضية لقطف ورودك المفضلة ، الثواني التي أكتب فيها إليك .

أتذكر صديقتي استشارتني مشاركتها في إحدى الأندية الثقافية عند فعالية بأهمية الزمن وثقافة احترام المواعيد ، لم أجادلها فقط قلت لها : قومي بذلك لم اقرأ عن أهمية الزمن سوى مؤخرا ، لكن ذلك لم يمنعني مسبقا عن إدراك ماهية الزمن وإلا لما انتبهت لأهميته.

أتذكر مراسم تأبين جاري الكهل جيدا ، الكفن وسعف النخيل المبروم يحزم تلك الجثة الطريحة ، يرقد بسلام سكنته الطمأنينة في سرير خشبي متوسط ، ما زلت أشتم تلك الرائحة التي عطرت بها جثته ، كنت أجالس

أبنائه بحزن ، راودتني حواراتنا ،غالطته في كثير منها وكانت لي حجتي ، كان يسخر مني لأنه مشبع بالتجارب لكبر سنه ، قاطعته:

الكتب لا تخون .

كان طيبا سوى إنه عصبي ومتطرف ،هذه مساوئ الأدلجة تلونك بخاصتها بحيث لا تقبل التلوين ثانيا ، طلائها يتجدد بنفسه ولنفسه ،تدحرجك في قيعانها وتسقيك مياهها حتى إذا قتلك العطش لا ريان بغيرها ، هي سم العصور، ترياقك منها بقناعتك بدرجة سميته ، لحظتها تنزوي نحو أفق أرحب وتخليق عقل متفتح ، العصبية شر مختلق يسفر عن شر دائم ، السوداني يرضع من ثديي أمه قبلية و يفطم على قبلية و يحشر في مقبرته وحده ، الإدارة الأهلية مرهم لأسطح الفتن القبلية ، الطائفية السياسية طفيل ديني عصي

الاستئصال ، يبدأ السوداني برفعة وطنه وقتما يخرج من حصار الأنا و نحن .

كان كذلك جاري لكني كنت أجاري عصبيته ببرودي ، بنبرة صوت مثلجة ، هدوء مفرط ، كان يقول :لا فائدة من هذا الجيل ، كأن جيلنا لم يتوارث سلوكياته منهم ، لكن لا فائدة من جيل أبائنا .

هل تعلمين إنه كان يحدثني عن فترة شبابه ، حكي لي أول حبه ، أيام شقائه كان يسميها ، يرسل رسائله الغرامية نصيا في بريد ورق مقوي يعده بنفسه ويغلفه بأوراق ذهبية اللون ناعمة الملمس، يقطف وردها المفضل بعناية ، جزء منه يعطر رسالته والأخر يرسله لها ، أبوها رائدا في الجيش ، كانت تنفر من كل مدلولات الحب ومسمياته حتى أغراها باهتمامه العظيم ،وقعت في حبه وكانت أكثر حبا كما يقول ، واعدها خلسة ، نظرت بخجل في عينيه ،مد يده لمناولتها باقة

الورد امتدت يد غليظة وقعت على أثرها باقة الورد وتوارى النهار وانهمر الدمع ،يقول : لم يشعر بألم الكدمات إلا في منتصف الليل .

في اليوم التالي خطبت حبيبته من ابن عمها وهو الأخر ملازم في الجيش ، تمرد نتيجة ذلك على كل أشكال السلطة .

وفي اليوم التالي من حكايته لي أنتقل إلى مثواه .

عزيزتي ، أراك في شفرة الحفر والمعول تلوحين كأن أسطورة جاري تجاريني في محنتي وأنا الشقي الآخر، بين طيات سعف النخيل وبرش الجنازة ، أراك في قطرات دمع أبنائه .

الأسى ملح المساكين ،وطعم الحيارى .

معدتي تؤلمني ، قللت من احتساء الشاي الذي بدأت بالإقلاع عنه مؤخرا بسببها، لم أعد أحتمل لأنها تمنعني من مزاولة القراءة و الحديث مع الصبايا ، وكلما بدأت في التفكير يزداد ألمي ، كنت أرخي أعصابي وأستجم تحت شجرة ليمونتنا ، أتناول التبغ رغم ضرره يهدأ أعصابي ،أكره العقاقير الطبية تسبب لي الغثيان والتشنج ، قوة الكافيين في القهوة أضعاف ما بالشاي لكني لم أستطع تركها ، أحيانا نحب ونتشبث بمن يعذبنا ، أمي صرخت قائلة بأني أقتل نفسي ، تقصد إني أجلد ذاتي ، لم أكن ماز وشيا ،

تحمل ألم أقل من أجل ألام أعظم مبارزة ،فن العطف مشاعر خلقت خصيصا في قلب الأم ، تشعبت فأصبحت تعاطف عند الآخرين و شفقة عند التعساء , لا أكترث .بدأت في قراءة رواية الثعالب الشاحبة ليانيك هاينيل ، قلبي يخفق وكنت أضغط على معدتي

بالمسندة ، العمل الأدبي يداوي وفقا لقوة وبراعة كاتبه ، شعرت بتحسن في أولى صفحات الرواية ، قبلها هنالك كتاب لأبن تيمية لم أكمله ، قراءته تتطلب عقلا سليما ناهيك عن جسدي المترهل اليوم ، قوة الفكر ليست كقوة الأدب ،الأول تشييد والثانية تزيين .

الألم أشتد ، سأكتب لكي لاحقا .

على لسان جان ديشيل : انتبهوا ، قد يكون هناك نوع من الجاذبية للانعزاليين لكن فيهم أيضا نوعا من القسوة تدفعكم إلى أن تبتعدوا عنهم .

ذكرتني مقولته بسيدة نبيلة تعرفت عليها مؤخرا حينما دار الحديث بيننا قالت لي متسائلة بتعجب: شخصيتك جذابة ، أظن كثير من الآنسات يقعن في شباكك .

ربما ، لست أدري .

لا يهم مدى قربك وتوددك بسيدات المجتمع الفضليات ما لم تك فيهن واحدة تشاركك اهتمامك وسعيك الحثيث

،تداوي جرحك النازف ، تطبب ألمك ، تصارع فراغك لتحتل مساحاته ، تقاتل ثديات العوالم التي تزاحمها فيك ، تعطيك حيزك الخاص وقتما تضمن قربك لها ، لا أحد مثلها تلك المنشودة ، المنقوشة على رخام مصيرك ألعلائقي ، الفضلى تعلم ذلك وإلا نفسك تتكفل بحب ذاتها .

حب الذات أعمق الغريزة ، سطحي في تجاوبه الأخلاقي ، لم يكن الإنسان البدائي إلا نموذج مصغر في حب ذاته يقاتل الماموثات والفيلة وأكثرهم صيدا ، يأخذ اللحم الوفير ، تطور في صناعة أدوات صيده وشراكه وأدواته لخوفه من المفترسات والأعداء والطبيعة ،لم ينظر الإنسان لمستقبله بدافع الأمن وإحلال السلام ، طالما كان متخوفا من فكرة الحرب ، قوة السلاح ،شراسة العدو ، دفع بنفسه قليلا في حب الذات فعممه لحب ذات العشيرة وتطور سلوكه بعد

ذلك لحماية قومه لكن دائما نظرته كانت تتمركز حول نفسه ، مصيره كفرد سواء في الحكم والسلطة أو في التشريعات أو في الأخلاق بغرض إقحام أهوائه و مصالحه من أجله كالرجل الحاكم أو رجل الدين ، أو السياسي .

لذلك، مع ضمان قوة حب الذات لم يتخلى الإنسان عن علاقاته الغيرية الأخرى كزوجاته ،عشيقته، صديقه ،عشيرته ، وطنه .

يحرقني غيابك في أحشائي ، أحسها تتمزق في جانبي الأيسر ، الزمن نسيان لقسوة المسافات ، قطعت أشواطا بذاكرتي للقاك اصطدمت في الأخير بتعاسة الواقع ، نذرت لنفسي بتجاهل ضحكة الحياة ،هي لا تضحك لنا إلا لتستهزئ بحماقتنا ، نحن غرباء فيها تريد تملك ما فينا ، دراسة تفاصيلنا ،مناورة أبجدياتنا ،

تخليق ظروفنا التي نشقى في تطويرها ، تساعدنا في البدء وتضحك علينا في النهاية .

كنت أرى في الصبر ملاذي ، غيب اللاشيء في مجابهة المصير ،أتلمس أسس القدر وكأنه لي لكنه يفلت من قدري الخاص ، لا ملكوت لدي في مواجهة القدر الأعظم ، لوحنا المسطر ، صفائحنا المباركة والنتنة بقاذوراتنا الحياتية ، ذنوب بغرض الهوى المكبوت ، مجاراة الشيطان في ألاعيبه الخفية الساحرة ، والأخطر تحدي الإله ، لا يأبه بتحدينا فنحن نمكر ومكره عظيم .

تخبطي المعرفي قادني لتلك الهمجية التي تحديت الهي فيها ، تمردت عليه ، تجاهلت الصلوات ، لم أك نادما لكني تعيس ، كئيب ، كنت أعلم بعدم مبالاته بشرارة تمردي في كونه الشاسع ، لكني أحسست برحمته

تتدفق علي بترسيخ قناعاتي للبحث عنه ، في تلك الفترة كنت أبحث عن وسيلة تدلني إليه ، فغفلت عنك .

عزيزتي ، شكوكي في عناصر الكون نتاجه تكوينك ، محال تشابهين هذه المخلوقات الأنانية المعاصرة ، الذوات النرجسية المقهورة ، المتسلطة على رقاب الضعفاء ، تكوينك العنصري ملائكي ، خلاصة الفضيلة ومعدنك الياقوت .

لم تثر في نفسي حيرة كتلك التي تساءلت على أثرها كيف هذي الحسناء استوطنت دواخلي ،التزامن الفيزيائي بمنطقية اللمحة الأولى أي النظرة التي سلبت فؤادي ، كيف تفسر إن حللناها رياضيا ، هل هنالك فيض فوتون كمومي خاص، ماذا عن طول نظرتك الموجي وترددده الذري ، كيف أحصيها مجددا لأشكل نظرة محسوسة تطابق تلك التي في خيالي ، أخاف فقدان ذاكرتي أو خرف يهلكني نتيجة تفكيري المفرط

،لم يقتل نيتشه إلا تفكيره ، هوسه بفكرة قوة الإرادة ، صداعه المزمن فجر أعصابه التي شوهتها امرأة فاتنة مثلك ، تخافين إيذائي ؟

لست كنيتشه في عبقريته ، لكن حبي أظنه أعمق .

لم اقرأ كسارة السكون جيدا ،خفت أفقد حس الدهشة وقتما اقرأها في نهايات حياتي ،علها تتجدد ، عيب الهدايا ترى فقط ككنوز في متاحف .

الهدايا وشاح الأماني وزنابق اللهفة التي تطفو في ينابيع اللقاء ، ريثما أعود سأهديك أيامي ،رقتي التي تكسو صفو بالي ، قنافذ المجد تقاتل أفاعي التقاعس ، لنصرة مقامر باع سعادته لكسب رهان الخلود ، لأجلك أكافح لشعلة الحرية الكبرى في نوادي ضاق ذرعها

من طغاة زاحمونا ، ساعديني في تجاوز صمتي ، نخر الهمس تجويف قولي فتآكل ثم مات .

أضع أصبعي على الزناد و الفوهة على قلبي , أنتظر الإشارة ربما تنقذني رصاصة الرحمة الأخيرة ، موت فرق موت لا يهم ، كم مات عشاق في سبيل حبيبهم ؟

كم ألهم الموت طريق عشيق ؟

الموت سعد ، ميتافيزيقا الغياب المستفز ،تفسيره يخلو من أي تراجم سوى إنه فراق ، قشعريرة صامتة ،مبيت أبدي ، كرنفال لا تشاركه مع محتفلين ، يعظموك في لحظة بالنحيب والفقد ، يكرموك في غيابك ، وسامه تابوت خشبي ،نحاسي،أبنوسي،ذهبي .

الموت ألبس بعضنا حلية زاهية ، كالمشرد حين مات كفنوه عطروه ،صنعوا له منزل لم يحلم بمثله طول حياته ،دعواتهم زيف مبالغ تجاوزت ذاك الصراخ

حين المشرد بات نائم جائعا عشية حياته ، مرت الساعات نسوا معنى أن تكون شريد .

عزيزتي، عظمة الموت تكمن في غموضه ، حكمته ، الموت في عدالته .

كنت أعتقد أن المنطق يتلاشى بتصادمه مع حقيقة الموت ،إلا أن غموضه يفسر كل منطق لم يجد له تفسير ، نحن نبكي على موتانا لا لفراقهم بل بسبب اللحظات التي عاشوها معنا وإلا لكنا نبكي لكل قريب وبعيد دون تمييز جلي فقط لعلمنا انه مات ، حزننا على غياب من نحب وهو حي لا تعادل أحزاننا على الموتى ، ربما يعود قريبا اليوم أو غدا ، نتكبر ، نتناسى وننسى ، لكن من ينتقل للأبد يفارقنا للأبد دون أن نجد فرصة للاعتذار له ، أو مسامحته ، شكره ، التأسف على فراقه ، مشاركته حزننا لغيابه , والمرعب تذكره دوما .

عزيزتي ، قدسية المرأة في عفتها ،عزة نفسها ، الجوهر النفيس يحتمل أشد الظروف قسوة ، الضغط والحرارة ، قبره في بطون الأرض لملايين السنوات ،تفرده عن أشباه النفائس و رخيص المعادن ، سموه بكينونته دون مظهره ، فيخرج لامعا مع من يستحق ، النفائس لا تصدأ .الدرر تستوطن الأعماق .

الغبي من يتجاهل صحبة مثقف

الأستاذية اليوم أصبحت لقب تشريفي لأجل ثناء وكسب مدح

يموت المعلم جوعا لرفعة تلميذ ثري

المجد يبدأ حين نهتم بالمعلم ونعطيه ما يستحق

تزعجني ثقافة المعلم منتهية الصلاحية

هشاشة التعليم في ضعف إمكانيات المعلم

يصير الطالب طالبا حتى يبدأ بصدام معلمه فيصبح صعلوكا

المعلم معدنه أنفس .

أسميتك لؤلؤة زرقاء ، لندرة أصلك و سطوع جوهرك

قدسية المحب فوق المخلوقات كارثة لحشو القلب

الصدمة العظمى للمحب في الغياب المفاجئ

تقطع الاهتمام يورث الجفاء كما النبت حين ينقطع عنه الري

سعادة المحبوب في امتلاكه الحقيقة

الصراحة المبالغ فيها تذهب الأمانة

التكلف يثير الشفقة .

نزاع قبلي

التاسعة صباحا ، تناولت إفطاري على عجل ، حضرت لي أمي قهوتي الصباحية ، كنت أتصفح كتاب اعترافات لروائي شاب ريثما تجهز لي والدتي طلباتها لأحضرها من السوق أثناء عودتي من الكلية التي نتجمع فيها مع بعض طلاب الطب لمراجعة مقرراتنا الدراسية ، خرجت في الحادية عشر بدراجتي الهوائية ، لم تكن ملكي صراحة ، كنت أستمع لسيمفونية موسرجسكي تسمى الظلام على الجبال الجرداء ،عزفها ينقلني لطيات السحب فوق حينا الرث ، رأيت أوجه مكفهرة تنظر بتفرس علي ، كان الطريق معبرا وحيدا للسوق في تلك الناحية ، يمينه مجرى مائي ضحل ، ويساره مستودعات بترول عملاقة ،أحسست بحركة مريبة لم أطمأن لها أبدا رغم قوة الموسيقى التي تنبعث من سماعات الأذن خاصتي

، كانت النظرات الجامحة تتخلل طاقتي وسلامي ، هددتها ، من السوء تهاجم دون مبرر لكنها مؤشرات الغريزة ، هممت بالهرب ومواصلة المسير ، لم يسألني أحد لكني أحسست وأدركت ، العداء ، نزعة الشر في النفوس لها جاذبيتها الجبارة وهي أولى بوادر الثنائية الوجودية في ظهورها واستثارتها، بقاء وتكيف الكائن يعتمد عليها غالبا ، الشر توأم متمرد رأى الشمس قبل أخيه ، الشر هو نموذج قابيل في كنهه البدائي ،وأستمر في تطوره بموت نموذجه الإنساني الآخر ، فقد الخير دعامته الأولى بموت هابيل ،تقهقر أمام جيش قابيل ، لو لم يمت هابيل لكان الخير تساوى في قوته مع الشر ، لكن لما ظهرت أثر ذلك هذه الثنائية الخيري/شري لما بدت و سميت الثنائيات الرمزية أبيض/أسود ,نور/ظلام ، علم/جهل ،سلام/حرب ،تعايش سلمي/مشكلة قبلية ...

استقبلني أصدقائي بترحاب ، بعضهم لم أراه مذ فترة طويلة ،اتفقنا في الخروج لرحلة نهاية الأسبوع ،حتى تشاورنا في نوعية الطعام هل نأخذ اللحم الأحمر أم الدجاج ، لابد أن نروح عن أنفسنا قليلا نتيجة الضغط الملقي على رؤوسنا ، وترميم جسور صداقتنا التي شوهتها المسافات وترهل الأعذار الواهية .

فتحت المرجع وبدأت في قراءة بعض الأسطر ، أتصل علي صديقي وحدثني بصوت فاتر لا أستطيع المجيء هنالك صراع بين شخصين في سوق الخضروات وتحول لنزاع قبلي ولوجع القدر صديقي من إحدى القبيلتين المتناحرتين ،عزيته في مصيبته ، لم أخرج من دائرة صدمتي اتصلت أمي والهلع خانق أنفاسها ، أأنت بخير ؟ هنالك مشكلة في السوق ؟ لا تخرج من موقعك ، خذ حذرك .

بطارية شاحني أوشكت على النفاذ والكهرباء صرعى في يومها الثاني ، نظرت لصديقي في ذهول ، كارثة أصابت مدينتنا ،لنخرج من هنا قبل فوات الأوان .

موقع دراستنا هادئ ،حتى معظم قاطنيه ممارسين حياتهم بعفوية وتلقائية ، خرجنا توا نحو السوق ، قلت له لنشرب القهوة ، مازحني لنشربها عند قهوة و.ق ، قلت له : أأنت أحمق هنالك شرارة المشكلة و عنفوان الحدث , شربنا القهوة في أخرى ’كان هناك دخان في الأفق ، كالخيط الأسود في الفجر البازغ ، اسوداده يزداد كلما دققت النظر فيه ، وبينما أفكر في أسرتي ومنزلنا ، يبدو موقعه حيثما أفكر , وضعت كوب القهوة في قلق بدا واضحا في قسماتي حسب تعبير صديقي ، لم أستطع التحكم في أعصابي ، هممت بالرحيل ، ودعته مغادرا .

جسدي على الدراجة وعقلي مع عائلتي وعيني في ازدياد كثافة الدخان ، وصلت لحدود الحي المعني الوصول إليه ، رأيت بعض النسوة متجهمات الشكل ،يحملن عصي ، لم يسألني أحد ولم أنظر سوى في الطريق .

وصلت ، والدخان خلف منازلنا ،قالوا لي مصدره زريبة الحطب , حرقوها بعد تفاقم الصراع بين المكونين ، ومنعت سيارة الإطفاء من الوصول لأطراف الحريق ، رجعت في حالها ، يا لمسكنة المؤسسة الحكومية اليوم .

هدأ الوضع وكانت كل الحوارات في البيوت ، الشوارع ، المتاجر الكبيرة والصغيرة ،المقاهي في تلك الساعات المسائية عن الصراع وحريق زريبة الحطب، تداول الخبر بين التهويل والمبالغة ،تسمع أحدهم وقت الحادثة كان نائما يصرح : حرقت زريبة

الحطب وقتلوا شخصين فيها ، الآخر يعترض : بل قتلوا كل من فيها وحرقوها .

نظرت بتهكم لأراء العامة الفارغة ،لا توجد حلول لديهم ،يتناقلوا الأحاديث بينهم كسرب النمل ، طلبت من أمي إعداد بعض القهوة ، استأنفت قراءة الصباح اعترافات روائي شاب ، كنت مرهق قليلا ، غفوت بعد وجبة الغداء ، قمت بعد ساعة تقريبا لأنتقل نحو غرفتي وأستكمل النوم ، لكن هيهات ..

رأيت نيران مشتعلة في الاتجاه الجنوبي الشرقي ، مستحيل ،أيعقل حريق زريبة الحطب ازداد اشتعاله ،لكنها جنوبا ، فكان ذلك منزل الشيخ ومتجره ،هتفت لأمي وأخوتي ،فجأة تعالت أصوات الجمع الهائج ،ولهيب النار المتأججة ،خافت وأوصدت الباب ونقلت الأطفال باتجاه معين معلوم ، قالت :إذا أشتد القتال لا يفرق بين الخصوم وغيرهم ، قلت لها : لن يصيبنا

مكروه ، لم نجد عصي أو أسلحة بيضاء سوى سكاكين المطبخ و بعض الخيزران المكسور ، تفحصنا أخي بتأسف قائلا هذه نتيجة التهاون ، تحملوا ما سيصيبكم اليوم وأياديكم خالية ، نتيجة التهاون كررها ثانية .

كنت أفكر في حيلة أكثر ذكاء من مجرد رفع سكين نحو نصف قبيلة تهاجمك ، كالاتصال بالشرطة مثلا أو الاختباء في الحمام ، ليس من الحكمة مواجهة قطيع من الجمهور الذي تحكمه عاطفة القبيلة ،الأدرينالين يضخ في دماءهم في كل خطوة ، سيوفهم و سواطيرهم وفؤوسهم وحرابهم لا رأي لها عقلاني ، لا يحكمها سوى صوت العصبية و رائحة الدم ،تذمر أخي واتهمني بالجبن ، قلت له: الكثرة تهزم الشجاعة ، لا أريد الموت في قضية لست مؤمن بأنجع قراراتها ،الموت مقام اعتزاز لشرف سامي وهدف نبيل .

لم تمر الساعة وسمعنا محركات الجيش تحتل الفاصل بين الأحياء المتخاصمة واحتوت مكان الحريق ، لكن رغم ذلك لم نسمع صافرات سيارة الإطفاء .

الظلام قاتم ، نيران في عدة أماكن ، كنا نتابع تفاصيل الليلة من داخل المنزل متحركين في أركانه ، أصوات بعيدة تهتف بعبارات غير مفهومة ، صراخ ، أوامر ، ضجيج محركات الجيش تسيدت الموقف ، حزمت أمري إذا هجم منزلنا سأحمل أختي الصغيرة و أخرجها ، تلك هي وسيلة المقاومة الوحيدة لتجنب تفاقم الموقف ، حفظت موقع نومها جيدا حتى لا أحمل شيئا غيرها ، الخوف هو الشعور الذي يفصل بين معرفتنا وجهلنا القابع خلف الغيب ، غرابة الشعور بما يحدث ، مفاجئته لنا بطيات الرهبة المتخفية في عقل العدم .

في تلك الليلة لم ينم أحد منا سوى الأطفال ، لجهلهم بما يحدث في واقعهم ، اتجهت الساعة نحو الواحدة صباحا

صوت الحيوانات أعتلى فضاء مدينتنا ، السكون عم كل شيء ومازالت النيران مشتعلة في منزل الشيخ ، أرهق كامل جسدي من كثرة الوقوف والحركة ، كليتاي كأنهما توقفتا ، جلست مفكرا هل يا ترى سلم أحد منهم بعد هذا الغدر والحريق ؟

لا أدري ، ربما مات الشيخ و تناثرت جثته في رماد المنزل ، أطفاله وزوجته و ممتلكاته ، مجهود سنوات ضاع في أدراج الجهل و ثورة الحقد ، القبلية شر يستلزم تهذيبه ، قنبلة موقوتة زنادها بعض الحمقى ، ثدي يورث الأحقاد للأجيال القادمة ، النظرة الأحادية التي توطد مفهوم الأنا وتتمحور حولها السادات و الأقزام . هم صرعى لشيطان الجهل ، عبدوه وقدسوه وكانت القرابين ضحايا أخوتهم البشر ، دماء الأبرياء ، ونحيب الأرامل وصراخ الصغار .

غفوت فجأة ، استيقظت في التاسعة صباحا ، الجيران تناقلوا الأخبار، كعادتها متضاربة ، تناولت قهوتي ، لم أستطع القراءة لفرط الإجهاد الذي أصابني ، سمعت أصوات محركات الجيش وخرجت في السانحة ،وقفت مشدوها ، تراصت القبيلتان ويفصلهما العسكر ،يسب كل منهما الأخر ويعده بالتنكيل و أقسى أنواع العذاب ،رجعت خطوات حيث المكان الآمن ، بعيدا عن أفكار الجمع المهووس بالقتل ، الشرطة ساخرة تنظر ، ولعمري اعتقدت سيحتدم القتال الآن قبل الدقيقة التالية ،الجو مشحون بالحقد والضغائن ، بالرعب والوعيد ، في حربنا الأهلية صغائر النفوس عمدوا أنفسهم قادة ، وسيروا الانتقام منقذ القبيلة.

كانت هنالك أتربة كثيفة , الغبار أجج ما بداخل صدورهم و وتشاركوه العتمة ، عامل البناء بشير ليس من القبيلتين المتحاربتين لكنه يسكن وسطهما مثلنا

تماما ، ذهب وأخرج أثمن مقتنيات منزله ، عاد وجلس في تحت ظل حائط بالقرب من حيث أقف ، كان يفكر بعيدا حائرا ،الأسى في بريق عينيه المترهلتين ، كأنه يقول ما ذنبنا ، نحن الأبرياء ، نريد السكينة والنجاة ، لم ينبث بنت شفة ، نظرت نحوه بتأني ، فألتفت فأرى إحدى المنازل تشتعل ، حريق جامح يأكل سقف المنزل ، كان أول ما بدر في ذهني كيف تجاوز هذا الحريق صفوف الجيش ، كيف يغفل حماة الجريمة من أشنع صنوفها ، وهيج الحريق الطرفان ، المحروق غضب و شمر ساعديه والحارق يؤدي رقصة نصره الشيطانية حول نيران العدو ، أهازيج تصاعدت ، وزغاريد نساء تزيد البؤس بؤسا مرتين .

أرهقتني الكآبة ، كيف ننشر وعيا في مجتمع سادته القبيلة ، من أوصلوهم هنا هم أنفسهم تقلدوا مفاتيح

الاستنارة ، بمزجها بسلطة الكرسي و شيطنة التعليم و المدارس عن أي وعيا تتحدث ؟

هضمت حقوق إنسانيتنا و تبلد وعي كل الجمع من شيخهم لطفلهم ، قالوا لهم : تعليم أطفالكم يضمن لكم شيوعيتهم ، كفرهم , إلحادهم , تمردهم عليكم .

وحركونا كالبيادق , كل نقلة تؤخر ركبنا عن اللحاق بالحضارة ، صرنا مجوسا نعبد نيران جاهليتهم ، حرائق فتنتهم تبدو لجهلنا كأنها الخلاص نحو الفردوس .

انسحب الحشد المهاجم نحو منازلهم ، حمدت الله لانطفاء الفتنة , الشرطة لم تحرك ساكنا ، ولم يبرح الانتقام مكانه في قلوب المتخاصمين ، لم تنقضي ساعات ورجع الوضع أسوأ من قبله واحتشدت

القبيلتين وديدن الشر استحكم نفوسهم ، بدأت المناوشات بالحجارة ، أصيب من الطرفين ، كان الكل يدافع عن طرفه باستماتة ، رجعت مهرولا لأسرتي معي فقط أمي وأخي والأخير خرج ليشاهد الاقتتال ،عنيد و أحمق ، جلست مع أمي لم يهدأ لنا بال ، تجاهلنا مائدة الإفطار ،هول الصدمة حجب شهيتنا ، كنا مذهولين مما يحدث ، هذا الحي يضرب به المثل في هدوءه تحول لمستنقع تسكنه العفاريت ، ضجيج و حريق وتقتيل و مطاردات ، قبل صلاة الظهر بدقائق معدودة انهالت علينا المكالمات وكان أبي على سفر وقلبه حاضر ، سمعنا صراخ لأطفال صدر من الجيران ، أردت الخروج ، منعتني أمي وقالت إلا لو أردت موتي ، طمأنتها سأتفحص فقط مصدر الصرخة ، خرجت معي فرأيت سيارات الشرطة فضت هجوم المقتحمين على منزل الجيران ، الدماء تملئ ملابسهم

، ودموع الأطفال بغزارة منادية نريد أبي ،لقد قتلوه ، والشرطي يطمئنهم هو بخير ، كان الموقف عصيبا ، عبثيا ، فوضويا ، ذهبت بالاتجاه الأخر خضبت الدماء أرض الشارع ، أصيب جاري بضربات فؤوس على رأسه وصدره و وجهه ، وأصيب أبنه أيضا ، وحتى المهاجمين تصدوا لهم وأصيب منهم شخصين بضربات سيف ، كان الجميع في حالة خطرة ، لم ينجوا من بالغ الأثر وأشد الإصابات ، نقلوا بالإسعاف إلى الخرطوم ، حاول الجيران منعهم من حريق المنزل ،هددوا الجيران بالمثل لو تورط منهم في التصدي لهم ، مواجهة أفراد لقبيلة تعتبر من الحماقة ، أحرق المنزل ، ولحق الجيران بإطفاء بقايا الحريق، لم أجد تفاسير منطقية توضح لي كنه التصرفات المغولية هذه سوى الجهل ، الشوارع مليئة بالأسلحة البيضاء جيئا وذهابا ،الملثمين ، اللصوص و المحتالين

،العصابات و الانتهازيين ،السكارى والمعتوهين ، كل
من يناشد الفوضى في حياته كان ذلك اليوم عيده ،
وكثيرين تجردوا من مثاليتهم ، صاروا أنذالا وقساة ،
حتى الماشية لم تسلم من خرابهم و كرههم المقيت ،
الطرف الأخر تميز بالاستفزاز والتسلط اللساني ، لم
يراع لأي مكون خالفه العرق بتعميمه للفظه العنصري
،خرج عن طوره وندب وشجب وتسلح ، كانت هنالك
مدلولات بتفاقم الوضع عن حده ، سوى في اللحظات
الأخيرة فرضت حالة الطوارئ وأعلن الحظر الشامل
في الحي وما جاوره من أحياء ، رغم مجيء الوالي
والساسة و حمقى الكراسي أظن لحساسية الموضوع لم
يتعاملوا مع الموقف سوى بتخديره بالحلول الآنية ،
صدوهم بالغازات المسيلة للدموع ، المطاردة
بالهراوات ، والرصاص الهوائي ، لم يخيفهم ذلك
حتى أعلن أن من يقبض عليه سيحاكم بالسجن

والغرامة وقتها تراجع الفريقين ، العدالة تقتضي أقسى من ذلك لدرء شر القبلية ، الأبرياء محصلة ذلك العقاب ، سوء الفعل يبدأ بمجرد النية فيه ، الجاني يردعه القانون ولو استلزم تطبيقه على واضع القانون نفسه ، فالقانون فوق الجميع ، تعالت الأقاويل بأن الفتنة مصدرها أطراف ثالثة وهي مفتعلة لأغراض سياسية لاشك في ذلك فالساسة ما زالوا يعزفون على أشد الأوتار حساسية في نفوس العامة وهي القبلية ، يقتات السياسي على فضلات الحكام حتى يحصل على منصب في الدولة وإلا بدأ بمسح مؤخرته بمنديل الدولة و نشر عفنه لتدنيس المجتمع .

قاذورات الساسة لا تتحمل نتانتها مزبلة التاريخ

يبدأ المثقف ناصرا للحق حتى يصير سياسيا

أولى معروضات السياسي ضميره

قبح الساسة يتجلى في أخر موقف ضمن حق تصويته

الشعب يتحامق بقبيلته وينسى إنسانيته

الفرد مسئول عن بلادته و تطرف عشيرته

شقاء المجتمع في ضحكة أعداءه المستفزة

العدو بعبقريته أفيد من شعبك بعنصريته

العنصرية سرطان ينتهي بعلاج الخلايا المتسرطنة

ساعة اليقظة أكثر عمرا من الحياة الميتة

السياسي الجيد هو فيلسوف الفضيلة

عملية استقرار وتوطين القبائل في منازل مملوكة شرعا لهم له دوره الخاص في جعلهم يظهروا إبداعات ثقافاتهم المختلفة وليست حصرها في دورها الغريزي العنيف فقط ، تفتح لهمم دور التعليم والرعاية الصحية و الأندية الرياضية ليبرزوا مواهبهم وتكون لهم

منصرف يتجاوز حدود التمحور حول القبيلة ، صناعة الوعي تبدأ برغبة الفرد في سماع ما يقولوه له ، الصراع الأثني ساقيته دائما يحركها صراع اقتصادي ، فقر الشعوب ينزع عنهم غطاء الأمن والطمأنينة .يبدؤوا يكشروا عن أنيابهم واحدا تلو الأخر ، منتهى الأسف يتقاتل من كان يشملهما مجتمع واحد ، مسألة الاهتمام بالكيانات القبلية جميعها دون فرز يعطي فرصة أكبر لتفادي الأحقاد التي تبرز في السطح كخطوة أولى ، التفاوت الفردي ليس له تأثير ، الحكومات هي من تخلق عقدة النقص في شعوبها ، ونصبح مجتمعا معاق نفسيا يتذمر باحتجاجات و يتنفس الصعداء تحارب قبلي ، في الدولة ليس هناك مكون أفضل من غيره سوى بالإنتاجية ، السودان نصف سكانه نازحين ومهاجرين ، تفاقم البطالة في هذه النواحي يحجز مقعدا أكثر من ممارسة الأعمال

الهامشية ، إذا لم تحرك الدولة مشاريعها لتضمهم تصبح أوكارا للجريمة و فتيل حرب قبلية يحتاج من ينزعه ، الاعتراف بالفرد وقبيلته يبدأ باعطاءه حقه القانوني ، و مصادرة ثقافة الآخرين على حساب مكونات تعتبرها أعرق وأنضر جرم في حق الإنسانية .

القبلية غدرت بالدين .

المجددون في الفكر والدين يتشدقون في فكرهم ويخرجوا عن محتوى الفهم السليم للنص ، حتى يقال لأحدهم هو مجدد ، الخروج عن أصل النص يفقده معناه ويصبح الأمر ليس تجديدا بل تمزيقا ، عقلية المجدد تكمن في احترامه لجوهر المادة و خلق أفرع في أفرعها حتى لا يصير العمل مجرد مهزلة فكرية والرجوع لتفكيك التراث العرفي غير المدعوم.

بنصوصه العقلية أو الدينية يحتاج لأدوات فكرية خاصة لتنقيته من شوائبه أو تحطيمه من جذوره ، مس أصول الدين أو العلم بغرض حجة تماهي التراث لهو عين الجهل بالدين أولا قبل التراث .

المجدد فارس عصره

نصرة المجدد تبدأ بالإحاطة الشاملة في قراءة تراثه بناء الأسس هي مضمار السباق الذي ينطلق منه كل عمل

الخيلاء والكبر تهدم روح العمل

المجدد لا يسابق الريح ليثبت قوة شراعه ، المجدد يدرس ماهية الريح قبل سباقها

صناعة المثقف تبدأ بتفرده لنقد كتاب

العقل السوداني هشمته نخبه

المستعمر نابغة في شل إقطاعياته

الانفصال نموذج تحقيري لإثبات مقولة المستعمر الانجليزي إنني كنت هنا

لتفادي ضرب السوط أتقي شر جلاديه

نحن لم نتعلم من تاريخنا سوى تكرار أخطاءه

كما قال ماركس التاريخ يبدأ بمأساة وينتهي بمهزلة ، تاريخنا يبدأ وينتهي بتراجيدياته الخاصة

تاريخنا يخلق فوضويته بمعزل عن التنظيم الذي كان لابد أن تعاد صياغته لتفادي أقل الأضرار

دراسة تاريخنا تستوجب قراءة ما خفي عنا و تحميص كافة جوانبه بدون حيادية

إشكالية المنتصر يكتب تاريخه تخل بفلسفة التاريخ نفسها ، لابد من الخروج من هذا المأزق الصرف ، لم لا يكتبه الطرف غير المشارك في الحرب مثلا

نعم كسرت بعض الظروف التاريخانية بمجرد قولي ذلك ، لكن لنكن صادقين أرخنة التاريخ تتطلب الصدق في النقل حتى لا يشوه المستقبل و يأخذ جوانبه دون الأخرى ، لنفترض أن المنتصر اليوم أنهزم غدا بصورة رئيسية ، سأشك بسبب تاريخه المغلوط ، سيضعه في موقف المتكاسل المتواكل على مضجع تاريخه الزائف ، كأنه يقول نحن لا نهزم منهم فقبل اليوم سطرنا أمجانا بدمائهم وأذقناهم الويل ، لا يهم من سيطر في الماضي فالأهم كيف نتدارك الخطأ في الحاضر .

الهروب من الماضي يترك فينا ثقوب تتخللها الذكريات بتنوعها جيدة ، سيئة مدمرة ، لا يجدي نفعا بينما مواجهة الماضي تتطلب شجاعة كافية لإشهار سيف تساؤلاتك في وجه أتعس الذكريات ، يأخذ وقتا و جهدا

شاقا ، ربما تخلق نوعا خاص من محاكم التفتيش
تقاضيها وتحاكمها حتى تخرج مستسلمة منصاعة
لتمنيات واقع سيادتك .

الماضي فهرس يدلك إلى الأخذ بنواصي مستقبلك

قلما تجد شخصا يعيش في ماضيه بهدوء

الذكريات تقبع دواخلنا أكثر ثباتا من الأحشاء

ملازمة الفكرة تكسر خيال الوهم

السعادة دائما في اختيار النوتة المناسبة

صحبة المتشائم تنجيك زيف المتفائل

صادق المتفائل الذي يتبصر أحداثه ويحللها

قوة الماضي تكمن في عظمة الحاضر وتفاؤل المستقبل

قاصر النظر من لا يرى حاضره .

قوة السريالية

عزيزتي ، لفهم اللوحة التشكيلية بكافة جوانبها يتطلب منا فتح عقولنا و عدم تقييدها بما يطفئ نشاطها ، دع العواطف تلجمك ، خذي نصيبك من هواء الموقف وحتى عمق رئتيك ، ركزي جل هدفك في موضوع اللوحة ، استيقظي من سباتك التخبطي ، توقفي على قرب منها ، أفتحي سراديب تفكيرك للهاربين من اللوحة ، موضوعاته التخيلية والواقعية ، ألوانها الزاهية الجميلة ، رما ديتها وتناقضها ، صراخها

الصامت ، بعثري تشكلها ورتبيه ، أحفظي إيقاعها بكل روعته و قبحه ، راقصي البهجة المنبعثة ، ليست مجرد لوحة زيتية أو ألوان ممسوحة على قماش ، الفن عظيم قوته في إحساسه .

الفن حشد من العواطف المغايرة

لملامس الواقع باحترافية تحتاج أن تكون فنانا

الإبداع يلازم الفنان المجتهد

العبقرية شذوذ الفنان

الفن شكل أخر من الجنون المهذب

كل الفنون تطمح لتصير مثل الموسيقى / شوبنهاور

كل ما يجعلنا نحسه بذائقة المتعة هو فن

شراب عصير البطيخ في الصيف فن

صناعة مركب من ورق فن

تكفين جنازة وتعطيرها وحملها على مهل فن .

مداعبة حس خيالك فن

نظرية كروتشه في مدرسة الجمال مبدأها الأساسي القائل بأن الفن يتحدد بشكل كامل حينما يعرف باعتباره حدسا أو مشاهدة عقلية هي من النظريات التي تفسر نظرتي في فلسفة الجمال ، إلا أن الحدس يتطلب إلهام يفتقده الرائي العادي ، كالنزعة الغنائية و التفرد الجمالي كأن الفن أنحصر على ذوات معينة دون غيرها من المتذوقة .

الفن يتطلب صفو بال

هواية في التعرف على أسراره

مظاهر الفن تتجسد في قوة طربه الوجداني

للفن هويته وبصمته في الأنفس .

كما قال هربرت ريد : الفن ليس مجرد تعبير عن مثل أعلى واحد بعينه في صورة تشكيلية وإنما هو تعبير عن أي مثل أعلى مهما يكن يستطيع الفنان أن يعيه وأن يعبر عنه تشكيليا .

ذاكرة الفنان تمثل منطلقه نحو رسم رؤاه الخاصة ، علقه اللاوعي ينظم هذا المنتج الغزير ، تخرج خيالاته مثل الخيوط التي ينسجها العنكبوت لبناء بيته ، يبدأ واحدة بعد الأخرى في تكوين صورة كانت متشبثة في لا وعيه لتصبح حدث لوحي ، فكرة قائمة بوجدانها و أحاسيسها العظيمة ، لحن صاف عذب ’ رواية أو قصة تتدافع داخلها الحكاوي و أشكالها و تتعدد الشخصيات المبتكرة لتأخذ كلا منها حيزها في عمق القصيدة أو الرواية ، تتناقل إبداعه الأجيال في مر العصور ، يتعايش عمله الخالد للحظة ليعالج جريمة ما ، وغدا ليرفه عن تعيس ، و بعده يؤانس وحيد في منفاه .

كل عمل من الأعمال الفنية له مبدأ يحكمه أو أساس يرتكز عليه ، له شكل وقالب معين وأحيانا يتخذ نماذج تختلف بوجود الذهن الذي يحلله ، كلما تمعنا في دراسة أو درسنا الأعمال الفنية العظيمة التي تعيش بفضل مظهرها الجذاب الراقي ، أصبح من الصعب أن ينزل ليحكم لها بأنها ذات قالب واحد بسيط .

كل فنان له عصره الذي ميز عقليته الفنية عن الآخرين ، تشكلت فيه مجموعة معالم ومعارف و مفاهيم جعلت لوحته أو أيقونته الفنية ترمز لذلك العصر بعينه .

يقول هربرت لا يمكن أن ننظر إلى للعقل بأعتباره المادية النهائية للفن ، ولا العواطف غير المنظمة للفنان الذاتي كذلك ، في فن التصوير كما في الشعر لا تكون تلك التصورات أو تلك العواطف أكثر من انطلاقة نحو التنظيم الكامل للحساسية وهذا التنظيم هو العمل الفني .

التنظيم الفني أحيانا يكون واعيا متعمدا وأخرى يكون غريزيا و عجبا إن كان غريزيا متعمدا أي في الحالتين يصبح كلا مركبا ، يصبح قادرا على المشاركة في إحساساتنا .

عزيزتي ، الإحساس بالجمال هو العنصر الحيوي في نشاط الفرد الفني ، والإنسان الحي من يفسر ذلك الإحساس بالجمال وشحذ مفتاحي عاطفته الجمالية ،لابد له أن يتصور تلك اللوحة أمامه في شكلها الرئيسي كاللون ، الصوت ، الحركة ، وكل ردود الأفعال المادية .

ثم ينظم تلك التصورات في أشكالها وصورها الممتعة ، ويقال الحس الجمالي ينتهي هنا ، لكن لابد من تطابق هذه التصورات مع الأحاسيس و الشعور لذلك العمل الفني .

لا أجيد الرسم لكني أتمتع بمشاهدة اللوحات التشكيلية ، صرت أقرأ عنه باستمرار وطالما انبهرت بلوحات بيكاسو التي أدهشتني بقوة تعبيرها و مغزى رسالتها ، بيكاسو يميل في لوحاته للون الأزرق كما فان جوخ يميل للأصفر هذا اللون المضيء البراق كما يستمد روعته من لون الشمس وأشعتها الذهبية ، الشمس التي تدور حولها وتتوارى خلفها كل الكواكب ، التي تنير كل ما هو مظلم وقاتم هي سعادة لكل ما هو كائن وحياة له ، لست أدري ما سر هذا التشبث بألوان معينة ، هل يكمن في عاطفة الفنان تجاه اللون المعني حتى يشكل ريشته كتميمة حظ تبعد اللعنات من رداءة اللوحة أم له علاقة بمدى مضمون رسائل الفنان الحياتية في ذلك .

فان جوخ عانى في حياته من الفقر و البؤس وتظهر في رسائله لأخيه ثيو كل مظاهر التعاسة الإنسانية

حياة فان جوخ انتهت بمأساة ، انتحر بعد صراعه مع نفسه ، إلا أنه بداخله كان يملك شعاعا ذهبيا خطه في لوحاته الساحرة ، كما قال الطيب صالح :

لا يوجد مأوى من الشمس التي تصعد إلى السماء بخطوات بطيئة وتصب أشعتها على الأرض ، كأن بينها وبين أهل الأرض ثأرا قديما .

كما يبدو جوخ كان مستعدا لمواجهة ألآمه ومشاركته الآخرين معاناتهم ، رغم كل العتمة في حياته كن هنالك شعاعا أصفرا قادر على إضاءة حياة الآخرين .

عزيزتي ، يا لوحتي الفنية التي أتحدى بك عتو القبح في عالمنا يا مذهبي الفني الذي هممت بتدريسه الأطفال ليروا حقيقة ما معنى الجمال ، جمالك الطاغي

يخفي تجاعيد أي حزن في محياك ، يا لوقاحتي لطالما رأيت حزنك معلم في الجمال .

ماذا لو بسطنا الريح لتثري عند كل مدخل أقصوصة السعادة والتسامح

نزيل عنها كل قبح ، غرور ، وكذب

نداوي بطيب خاطر كل جريح

نسعف الوطن من كيد غدار

نداري كل هم عن أعين اليتامى

نفتح الأبواب لقلوب المتشردين

ننشر المودة في بقاع الكون

ننبذ العنصرية

ونعطي العالم لون

نستظل تحت شجرة واحدة

كخروجنا من رحم حواء

نحن غيث ليروي القلوب

اسقني و اسقهم من عطفك العظيم .

لعلها ليست مجرد أحلام ، فالواقع مرير

المخلص لك دوما .